اسم الدرس : تفسير سورة الأعراف (٥) الآيات [٢٤ : ٣١]

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- نستكمل بإذن الله -عز وجل- وقفات مع سورة الأعراف. كنا توقفنا عند قوله -سبحانه وتعالى- الآية الرابعة والعشرين: ﴿قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾[الأعراف ٢٤].

تكلمنا في المرة الماضية عن كيفية نجاح إبليس -عليه لعنة الله- في المعركة الأولى بينه وبين أبينا آدم وأن المعركة مستمرة، وكانت هذه القصة هي البداية وليست النهاية، ولا بد للإنسان أن يستحضر دائمًا وأبدًا هذه القصة؛ ليستشعر العداوة التي حدثت بين إبليس -عليه لعنة الله- وبين أبينا آدم -عليه السلام-. فحين يستشعر الإنسان هذه العداوة ويعلم أنها عداوة موروثة في بني آدم ومع الشيطان وقبيله؛ فلا بد أن نتخذ الشيطان عدوًا، ومما يساعدنا على اتخاذ الشيطان عدوًا تذكر هذه القصة وقراءتها كثيرًا.

كنا توقفنا عند قوله -سبحانه وتعالى-: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[الأعراف ٢٣]، كانت هذه آخر آية تكلمنا عنها المرة الماضية. قد تكلمنا في مسألة هذا الشعور الذي يسيطر على الإنسان -شعور ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾[التوبة ١١٨]- هذا الشعور الذي يسيطر على الإنسان بأنه ليس له إلا الله وأنه لن ينجيه من هذا الموطن إلا الله وأنه إن لم يغفر الله -عز وجل- له سوف يهلك، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[الأعراف ٢٣] أي ستكون الخسارة كلها إن لم يغفر الله للإنسان، وستكون خسارة فادحة يخسر فيها كل شيء. إذًا الإنسان الذي لا يتوب هو إنسانٌ خاسرٌ، أما الإنسان الذي يوفق للتوبة هو الإنسان الذي انتصر على الشيطان.

فالانتصار على الشيطان لا يكون فقط بمجرد معصية الشيطان؛ فحتى إذا وقع الإنسان في المعصية قد ينتصر على الشيطان أيضاً بالتوبة، فقالا -آدم عليه السلام وزوجه-: ﴿وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾. لذلك لما نزلت توبة كعب بن مالك -رضي الله عنه- قال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك)[1]، فكانت هذه الخيرية خيرية التوبة.

[1] [عن كعب بن مالك:] أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بنَ كَعْبِ بنِ مَالِكٍ، وكَانَ، قَائِدَ كَعْبٍ مِن بَنِيهِ، حِينَ عَمِيَ، قَالَ: سَمِعْتُ كَعْبَ بنَ مَالِكٍ، يُحَدِّثُ حِينَ تَخَلَّفَ عن قِصَّةِ، تَبُوكَ، قَالَ كَعْبٌ: لَمْ أَتَخَلَّفْ عن رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في غَزْوَةٍ غَزَاهَا إلَّا في غَزْوَةِ تَبُوكَ، غيرَ أنِّي كُنْتُ تَخَلَّفْتُ في غَزْوَةِ بَدْرٍ، ولَمْ يُعَاتِبْ أحَدًا تَخَلَّفَ عَنْهَا، إنَّما خَرَجَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُرِيدُ عِيرَ قُرَيْشٍ، حتَّى جَمَعَ اللَّهُ بيْنَهُمْ وبيْنَ عَدُوِّهِمْ علَى غيرِ مِيعَادٍ، ولَقَدْ شَهِدْتُ مع رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لَيْلَةَ العَقَبَةِ، حِينَ تَوَاثَقْنَا علَى الإسْلَامِ، وما أُحِبُّ أنَّ لي بهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ، وإنْ كَانَتْ بَدْرٌ، أذْكَرَ في النَّاسِ منها، كانَ مِن خَبَرِي: أنِّي لَمْ أكُنْ قَطُّ أقْوَى ولَا أيْسَرَ حِينَ تَخَلَّفْتُ عنْه، في تِلكَ الغَزَاةِ، واللَّهِ ما اجْتَمَعتْ عِندِي قَبْلَهُ رَاحِلَتَانِ قَطُّ، حتَّى جَمَعْتُهُما في تِلكَ الغَزْوَةِ، ولَمْ يَكُنْ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُرِيدُ غَزْوَةً إلَّا وَرَّى بغَيْرِهَا، حتَّى كَانَتْ تِلكَ الغَزْوَةُ، غَزَاهَا رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في حَرٍّ شَدِيدٍ، واسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا، ومَفَازًا وعَدُوًّا كَثِيرًا، فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أمْرَهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ، فأخْبَرَهُمْ بوَجْهِهِ الذي يُرِيدُ، والمُسْلِمُونَ مع رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كَثِيرٌ، ولَا يَجْمَعُهُمْ كِتَابُ حَافِظٌ، يُرِيدُ الدِّيوَانَ، قَالَ كَعْبٌ: فَما رَجُلٌ

يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ إِلَّا ظَنَّ أَنْ سَيَخْفَى له، ما لَمْ يَنْزِلْ فيه وحْيُ اللَّهِ، وغَزَا رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تِلكَ الغَزْوَةَ حِينَ طَابَتِ الثِّمَارُ والظِّلَالُ، وتَجَهَّزَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمُسْلِمُونَ معهُ، فَطَفِقْتُ أغْدُو لِكَيْ أتَجَهَّزَ معهُمْ، فأرْجِعُ ولَمْ أقْضِ شيئًا، فأقُولُ في نَفْسِي: أنَا قَادِرٌ عليه، فَلَمْ يَزَلْ يَتَمَادَى بي حتَّى اشْتَدَّ بالنَّاسِ الجِدُّ، فأصْبَحَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمُسْلِمُونَ معهُ، ولَمْ أقْضِ مِن جَهَازِي شيئًا، فَقُلْتُ أتَجَهَّزُ بَعْدَهُ بيَومٍ أوْ يَومَيْنِ، ثُمَّ ألْحَقُهُمْ، فَغَدَوْتُ بَعْدَ أنْ فَصَلُوا لأتَجَهَّزَ، فَرَجَعْتُ ولَمْ أقْضِ شيئًا، ثُمَّ غَدَوْتُ، ثُمَّ رَجَعْتُ ولَمْ أقْضِ شيئًا، فَلَمْ يَزَلْ بي حتَّى أسْرَعُوا وتَفَارَطَ الغَزْوُ، وهَمَمْتُ أنْ أرْتَحِلَ فأُدْرِكَهُمْ، ولَيْتَنِي فَعَلْتُ، فَلَمْ يُقَدَّرْ لي ذلكَ، فَكُنْتُ إذَا خَرَجْتُ في النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَطُفْتُ فيهم، أحْزَنَنِي أنِّي لا أرَى إلَّا رَجُلًا مَغْمُوصًا عليه النِّفَاقُ، أوْ رَجُلًا مِمَّنْ عَذَرَ اللَّهُ مِنَ الضُّعَفَاءِ، ولَمْ يَذْكُرْنِي رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حتَّى بَلَغَ تَبُوكَ، فَقَالَ: وهو جَالِسٌ في القَوْمِ بتَبُوكَ: ما فَعَلَ كَعْبٌ فَقَالَ رَجُلٌ مِن بَنِي سَلِمَةَ: يا رَسولَ اللَّهِ، حَبَسَهُ بُرْدَاهُ، ونَظَرُهُ في عِطْفِهِ، فَقَالَ مُعَاذُ بنُ جَبَلٍ: بِئْسَ ما قُلْتَ، واللَّهِ يا رَسولَ اللَّهِ ما عَلِمْنَا عليه إلَّا خَيْرًا، فَسَكَتَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، قَالَ كَعْبُ بنُ مَالِكٍ: فَلَمَّا بَلَغَنِي أنَّهُ تَوَجَّهَ قَافِلًا حَضَرَنِي هَمِّي، وطَفِقْتُ أتَذَكَّرُ الكَذِبَ، وأقُولُ: بِمَاذَا أخْرُجُ مِن سَخَطِهِ غَدًا، واسْتَعَنْتُ علَى ذلكَ بكُلِّ ذِي رَأْيٍ مِن أهْلِي، فَلَمَّا قِيلَ: إنَّ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قدْ أظَلَّ قَادِمًا زَاحَ عَنِّي البَاطِلُ، وعَرَفْتُ أنِّي لَنْ أخْرُجَ منه أبَدًا بشيءٍ فيه كَذِبٌ، فأجْمَعْتُ صِدْقَهُ، وأصْبَحَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قَادِمًا، وكانَ إذَا قَدِمَ مِن سَفَرٍ، بَدَأَ بالمَسْجِدِ، فَيَرْكَعَ فيه رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ، فَلَمَّا فَعَلَ ذلكَ جَاءَهُ المُخَلَّفُونَ، فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إلَيْهِ ويَحْلِفُونَ له، وكَانُوا بضْعَةً وثَمَانِينَ رَجُلًا، فَقَبِلَ منهمْ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عَلَانِيَتَهُمْ، وبَايَعَهُمْ واسْتَغْفَرَ لهمْ، ووَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إلى اللَّهِ، فَجِئْتُهُ فَلَمَّا سَلَّمْتُ عليه تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ المُغْضَبِ، ثُمَّ قَالَ: تَعَالَ فَجِئْتُ أمْشِي حتَّى جَلَسْتُ بيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لِي: ما خَلَّفَكَ، ألَمْ تَكُنْ قدِ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ. فَقُلْتُ: بَلَى، إنِّي واللَّهِ لو جَلَسْتُ عِنْدَ غيرِكَ مِن أهْلِ الدُّنْيَا، لَرَأَيْتُ أنْ سَأَخْرُجُ مِن سَخَطِهِ بعُذْرٍ، ولَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا، ولَكِنِّي واللَّهِ، لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ اليومَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى به عَنِّي، لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ، ولَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ، تَجِدُ عَلَيَّ فيهِ، إنِّي لَأَرْجُو فيه عَفْوَ اللَّهِ، لا واللَّهِ، ما كانَ لي مِن عُذْرٍ، واللَّهِ ما كُنْتُ قَطُّ أقْوَى، ولَا أيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ، فَقَالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أمَّا هذا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ. فَقُمْتُ، وثَارَ رِجَالٌ مِن بَنِي سَلِمَةَ فَاتَّبَعُونِي، فَقالوا لِي: واللَّهِ ما عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هذا، ولَقَدْ عَجَزْتَ أنْ لا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إلى رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بما اعْتَذَرَ إلَيْهِ المُتَخَلِّفُونَ، قدْ كانَ كَافِيَكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لَكَ، فَوَاللَّهِ ما زَالُوا يُؤَنِّبُونِي حتَّى أرَدْتُ أنْ أرْجِعَ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي، ثُمَّ قُلْتُ لهمْ: هلْ لَقِيَ هذا مَعِي أحَدٌ؟ قالوا: نَعَمْ، رَجُلَانِ، قَالَا مِثْلَ ما قُلْتَ، فَقِيلَ لهما مِثْلُ ما قِيلَ لَكَ، فَقُلْتُ: مَن هُمَا؟ قالوا: مُرَارَةُ بنُ الرَّبِيعِ العَمْرِيُّ، وهِلَالُ بنُ أُمَيَّةَ الوَاقِفِيُّ، فَذَكَرُوا لي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ، قدْ شَهِدَا بَدْرًا، فِيهِما أُسْوَةٌ، فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُما لِي، ونَهَى رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ المُسْلِمِينَ عن كَلَامِنَا أيُّها الثَّلَاثَةُ مِن بَيْنِ مَن تَخَلَّفَ عنْه، فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ، وتَغَيَّرُوا لَنَا حتَّى تَنَكَّرَتْ في نَفْسِي الأرْضُ فَما هي الَّتِي أعْرِفُ، فَلَبِثْنَا علَى ذلكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، فأمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وقَعَدَا في بُيُوتِهِما يَبْكِيَانِ، وأمَّا أنَا، فَكُنْتُ أشَبَّ القَوْمِ وأجْلَدَهُمْ فَكُنْتُ أخْرُجُ فأشْهَدُ الصَّلَاةَ مع المُسْلِمِينَ، وأَطُوفُ في الأسْوَاقِ ولَا يُكَلِّمُنِي أحَدٌ، وآتِي رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَأُسَلِّمُ عليه وهو في مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فأقُولُ في نَفْسِي: هلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَامِ عَلَيَّ أمْ لَا؟ ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا منه، فَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ، فَإِذَا أقْبَلْتُ علَى صَلَاتِي أقْبَلَ إلَيَّ، وإذَا التَفَتُّ نَحْوَهُ أعْرَضَ عَنِّي، حتَّى إذَا طَالَ عَلَيَّ ذلكَ مِن جَفْوَةِ النَّاسِ، مَشَيْتُ حتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أبِي قَتَادَةَ، وهو ابنُ عَمِّي وأَحَبُّ النَّاسِ إلَيَّ، فَسَلَّمْتُ عليه، فَوَاللَّهِ ما رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ، فَقُلْتُ: يا أبَا قَتَادَةَ، أنْشُدُكَ باللَّهِ هلْ تَعْلَمُنِي أُحِبُّ اللَّهَ ورَسولَهُ؟ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ له فَنَشَدْتُهُ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ له فَنَشَدْتُهُ، فَقَالَ: اللَّهُ ورَسولُهُ أعْلَمُ، فَفَاضَتْ عَيْنَايَ، وتَوَلَّيْتُ حتَّى تَسَوَّرْتُ الجِدَارَ، قَالَ: فَبيْنَا أنَا أمْشِي بسُوقِ المَدِينَةِ، إذَا نَبَطِيٌّ مِن أنْبَاطِ أهْلِ الشَّأْمِ، مِمَّنْ قَدِمَ بالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بالمَدِينَةِ، يقولُ: مَن يَدُلُّ علَى كَعْبِ بنِ مَالِكٍ، فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ له، حتَّى إذَا جَاءَنِي دَفَعَ إلَيَّ كِتَابًا مِن مَلِكِ غَسَّانَ، فَإِذَا فِيهِ: أمَّا بَعْدُ، فإنَّه قدْ بَلَغَنِي أنَّ صَاحِبَكَ قدْ جَفَاكَ ولَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بدَارِ هَوَانٍ، ولَا مَضْيَعَةٍ، فَالْحَقْ بنَا نُوَاسِكَ، فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا: وهذا أيضًا مِنَ البَلَاءِ، فَتَيَمَّمْتُ بها التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهُ بها، حتَّى إذَا مَضَتْ أرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنَ الخَمْسِينَ، إذَا رَسولُ رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَأْتِينِي، فَقَالَ: إنَّ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَأْمُرُكَ أنْ تَعْتَزِلَ امْرَأتَكَ، فَقُلْتُ: أُطَلِّقُهَا؟ أمْ مَاذَا أفْعَلُ؟ قَالَ: لَا، بَلِ اعْتَزِلْهَا ولَا تَقْرَبْهَا، وأَرْسَلَ إلى صَاحِبَيَّ مِثْلَ ذلكَ، فَقُلْتُ لِامْرَأتِي: الحَقِي بأَهْلِكِ، فَتَكُونِي عِنْدَهُمْ، حتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ في هذا الأمْرِ، قَالَ كَعْبٌ: فَجَاءَتِ امْرَأةُ هِلَالِ بنِ أُمَيَّةَ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَقَالَتْ: يا رَسولَ اللَّهِ: إنَّ هِلَالَ بنَ أُمَيَّةَ شيخٌ ضَائِعٌ، ليسَ له خَادِمٌ، فَهلْ تَكْرَهُ أنْ أخْدُمَهُ؟ قَالَ: لَا، ولَكِنْ لا يَقْرَبْكِ. قَالَتْ: إنَّه واللَّهِ ما به حَرَكَةٌ إلى شيءٍ، واللَّهِ ما زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كانَ مِن أمْرِهِ، ما كانَ إلى يَومِهِ هذا، فَقَالَ لي بَعْضُ أهْلِي: لَوِ اسْتَأْذَنْتَ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في امْرَأتِكَ كما أذِنَ لِامْرَأةِ هِلَالِ بنِ أُمَيَّةَ أنْ تَخْدُمَهُ؟ فَقُلْتُ: واللَّهِ لا أسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وما يُدْرِينِي ما يقولُ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا، وأنَا رَجُلٌ شَابٌّ؟ فَلَبِثْتُ بَعْدَ ذلكَ عَشْرَ لَيَالٍ، حتَّى كَمُلَتْ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِن حِينَ نَهَى رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن كَلَامِنَا، فَلَمَّا صَلَّيْتُ صَلَاةَ الفَجْرِ صُبْحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، وأنَا علَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِن بُيُوتِنَا، فَبيْنَا أنَا جَالِسٌ علَى الحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ، قدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي، وضَاقَتْ عَلَيَّ الأرْضُ بما رَحُبَتْ، سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ، أوْفَى علَى جَبَلِ سَلْعٍ بأَعْلَى صَوْتِهِ: يا كَعْبُ بنَ مَالِكٍ أبْشِرْ، قَالَ: فَخَرَرْتُ سَاجِدًا، وعَرَفْتُ أنْ قدْ جَاءَ فَرَجٌ، وآذَنَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الفَجْرِ، فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا، وذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ، ورَكَضَ إلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًا، وسَعَى سَاعٍ مِن أسْلَمَ، فأوْفَى علَى الجَبَلِ، وكَانَ الصَّوْتُ أسْرَعَ مِنَ الفَرَسِ، فَلَمَّا جَاءَنِي الذي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي، نَزَعْتُ له ثَوْبَيَّ، فَكَسَوْتُهُ إيَّاهُما، بِبُشْرَاهُ واللَّهِ ما أمْلِكُ غَيْرَهُما يَومَئِذٍ،

قال تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

قال ربنا -سبحانه وتعالى-: ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[الأعراف ٢٤]، استشكل بعض العلماء سبب نزول آدم -عليه السلام- إلى الأرض بعد أن تلقى -عليه السلام- الكلمات وتكلم بها وتاب الله -عز وجل- عليه، أيًا يكن، هم يحاولون أن يستشرفوا الحكمة من ذلك.

من الممكن أن تكون هذه الشجرة -التي أكل منها آدم عليه السلام- أحدثت تغييرًا حقيقيًا في سيدنا أدم -عليه السلام-؛ مما استوجب أن ينزل إلى الأرض وأن يجاهد شهوته، هذه السوءة التي ظهرت - وظهرت معها الشهوة أيضًا- لا بد أن يجاهدها الإنسان؛ حتى يعود الإنسان مرة أخرى إلى الجنة.

كما ضربنا مثالًا -في الدرس السابق- في الفارق بين التوبة والتخلص من أثر الذنب، وهذه نقطة مهمة جدًا في السير إلى الله -سبحانه وتعالى-. وضربنا مثالًا -فيما أذكر- أنّ أحدهم يتعاطى المخدرات أو أنّ في قلبه شهوة معينة، من الممكن أن يتعرض هذا الشخص لظروف كموت أحد أقربائه أو مرض ما يجعله يندفع إلى الله -سبحانه و تعالى- و يتقرب إليه -عز وجل- ويتوب؛ فيترك الذنب، لكن آثار هذا الذنب ما زالت في جسده، آثار الشهوة ما زالت في قلبه، آثار المخدرات ما زالت في بدنه، فيحتاج إلى

واسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا، وانْطَلَقْتُ إلى رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَيَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا، يُهَنُّونِي بالتَّوْبَةِ، يقولونَ: لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ، قَالَ كَعْبٌ: حتَّى دَخَلْتُ المَسْجِدَ، فَإِذَا رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ إلَيَّ طَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللَّهِ يُهَرْوِلُ حتَّى صَافَحَنِي وهَنَّانِي، واللَّهِ ما قَامَ إلَيَّ رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ، ولَا أنْسَاهَا لِطَلْحَةَ، قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ علَى رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، قَالَ: رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو يَبْرُقُ وجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ: أبْشِرْ بخَيْرِ يَومٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ ولَدَتْكَ أُمُّكَ، قَالَ: قُلْتُ: أمِنْ عِندِكَ يا رَسولَ اللَّهِ، أمْ مِن عِندِ اللَّهِ؟ قَالَ: لَا، بَلْ مِن عِندِ اللَّهِ. وكانَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وجْهُهُ، حتَّى كَأنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، وكُنَّا نَعْرِفُ ذلكَ منه، فَلَمَّا جَلَسْتُ بيْنَ يَدَيْهِ قُلتُ: يا رَسولَ اللَّهِ، إنَّ مِن تَوْبَتِي أنْ أنْخَلِعَ مِن مَالِي صَدَقَةً إلى اللَّهِ وإلَى رَسولِ اللَّهِ، قَالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أمْسِكْ علَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهو خَيْرٌ لَكَ. قُلتُ: فإنِّي أُمْسِكُ سَهْمِيَ الذي بخَيْبَرَ، فَقُلْتُ: يا رَسولَ اللَّهِ، إنَّ اللَّهَ إنَّما نَجَّانِي بالصِّدْقِ، وإنَّ مِن تَوْبَتِي أنْ لا أُحَدِّثَ إلَّا صِدْقًا، ما بَقِيتُ. فَوَاللَّهِ ما أعْلَمُ أحَدًا مِنَ المُسْلِمِينَ أبْلَاهُ اللَّهُ في صِدْقِ الحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذلكَ لِرَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أحْسَنَ ممَّا أبْلَانِي، ما تَعَمَّدْتُ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذلكَ لِرَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى يَومِي هذا كَذِبًا، وإنِّي لَأَرْجُو أنْ يَحْفَظَنِي اللَّهُ فِيما بَقِيتُ، وأنْزَلَ اللَّهُ علَى رَسولِهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ علَى النبيِّ والمُهَاجِرِينَ والأنْصَارِ} إلى قَوْلِهِ {وَكُونُوا مع الصَّادِقِينَ} فَوَاللَّهِ ما أنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِن نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ أنْ هَدَانِي لِلْإِسْلَامِ، أعْظَمَ في نَفْسِي مِن صِدْقِي لِرَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أنْ لا أكُونَ كَذَبْتُهُ، فأهْلِكَ كما هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا، فإنَّ اللَّهَ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا - حِينَ أنْزَلَ الوَحْيَ - شَرَّ ما قَالَ لأحَدٍ، فَقَالَ تَبَارَكَ وتَعَالَى: {سَيَحْلِفُونَ باللَّهِ لَكُمْ إذَا انْقَلَبْتُمْ} إلى قَوْلِهِ {فَإنَّ اللَّهَ لا يَرْضَى عَنِ القَوْمِ الفَاسِقِينَ}، قَالَ كَعْبٌ: وكُنَّا تَخَلَّفْنَا أيُّها الثَّلَاثَةُ عن أمْرِ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ منهمْ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حِينَ حَلَفُوا له، فَبَايَعَهُمْ واسْتَغْفَرَ لهمْ، وأرْجَأَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أمْرَنَا حتَّى قَضَى اللَّهُ فِيهِ، فَبِذلكَ قَالَ اللَّهُ: {وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا}. وليسَ الذي ذَكَرَ اللَّهُ ممَّا خُلِّفْنَا عَنِ الغَزْوِ، إنَّما هو تَخْلِيفُهُ إيَّانَا، وإرْجَاؤُهُ أمْرَنَا، عَمَّنْ حَلَفَ له واعْتَذَرَ إلَيْهِ فَقَبِلَ منه.

البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٤٤١٨ • [صحيح] •

فترة زمنية من المجاهدة للتخلص من أثر هذا الذنب، بالرغم من أنه تاب وعفا الله -عز وجل- عنه، وندم وبكى وحقق شروط التوبة -الترك والندم والعزم- كلها؛ لكن ما زالت آثار المعصية داخله، فيجاهد للتخلص من آثار المعصية.

وهذا أمر مهم جدًا، فالإنسان يحتاج إلى فترة من فترات النقاهة بعد ترك الذنب، أشبه لما يحدث عندما يستأصل الجراحون ورمًا ما، فيأخذون مع الورم منطقة أخرى -من الجسد- يسمونها "منطقة السلامة" (margin safety area/ safety)، فيأخذ الجراح منطقة أخرى صحيحة مع ذلك الورم؛ حتى لا ينتشر هذا الورم.

كذلك الإنسان بعد ترك الذنب يكون في حالة من حالات الضعف أشبه بالإنسان الذي يخضع لعملية ما أو يشفى من مرض ما؛ فتكون مناعته ضعيفة غير مكتملة لم ترجع لما كانت عليه من قبل. فهذه الفترة فترة مهمة جدًا في فترات بداية التزام الإنسان أو بداية ترك المعاصي، يكون الإنسان في هذه الفترة ما بين إقبال على الله وبين حالة ضعف، ويشعر بنوع من الاعتصار أو الضغط في الصدر؛ لأنه في تلك اللحظات تُنزع الشهوة منه، حيث يقوم بمحاولات لنزع الشهوة؛ فيتألم لخروجها ويفرح بالإقبال على الله، فيمر بحالات من الاضطراب. هذه المرحلة من أهم المراحل التي يحتاج فيها الإنسان إلى التصبر وإلى الصحبة الصالحة؛ حتى تُصبره.

نزل آدم -عليه السلام- إلى الأرض بأمر من الله -عز وجل-؛ ليجاهد -نفسه- ويدفع ثمن الجنة، ففي البداية أدخله الله -عزوجل- الجنة دون ثمن، فلما عصى كان لا بد أن يدفع الثمن ويطيع الله -عز وجل-.

يقول تعالى: ﴿قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾، قال كثير من العلماء: ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾أي سيدنا آدم -عليه السلام- وحواء -بني آدم- في فريق ضد الشيطان، وضم بعضهم الحية -وإن كانت من الإسرائيليات- أن الشيطان استغلها -الحية- وقصص في الإسرائيليات...، سنبين هذا القول تحسبًا لو وجده أحدكم في التفاسير، قال بعضهم: أن هنا الجمع لآدم -عليه السلام - والشيطان والحية، وأن العداوة مستمرة بين الشيطان والحيات. رُوي عن النبي -صلى الله عليه وسلم- حديث في سنن أبي

داوود، قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: (ما سالمناهن منذ أن حاربناهن)[٢]، أي: الحيات، فلن يحدث مسالمة أبدًا بين الإنسان والثعابين.

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾، إذاً نزل الإنسان لأداء وظيفة معينة، ولم ينزل نزولًا دائمًا. تبين هذه الآيات طريقة التعامل مع وجودنا في الأرض، فنحن في وظيفة، في مَهمة، تختلف طريقة حياة الإنسان الذي يذهب إلى مكان ما ويشعر أنه في مهمة عن الإنسان الذي يذهب ليستقر بشكل دائم.

نزل الإنسان إلى الأرض كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾[البقرة ٣٠]، أي: ليقيم شرع الله –عز وجل– في الأرض، قضية أن الوظيفة هي تعمير الأرض بعيدًا عن شرع الله أمر غريب على الدين وليس من الدين في شيء.

((لأن أي تعمير للأرض -حتى البناء الدنيوي- دون دين يؤدي حتمًا إلى الفساد))

لذلك لابد من الجمع بين الأمرين، فالأصل هو تطبيق مراد الله –عز وجل– وتطبيق شرعه –عز وجل– في الأرض، فالملائكة تطبق مراد الله –عز وجل– في السماء، واصطفى الله –عز وجل– خلقًا من خلقه لينزل إلى الأرض، وهذا الخلق –الذي اصطفاه الله –عز وجل– لينزل إلى الأرض– كان مخلوقاً من الأرض؛ لينازع شهواتها ويقاوم ملذاتها. يقول تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾[الأعراف ٢٤]، أي إلى لحظة البعث.

يقول تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ﴾[الأعراف ٢٥] أي: في الأرض. استدل بعض العلماء بهذه الآية –في التنبؤات المستقبلية– أنه طالما قال ربنا –عز جل– لآدم –عليه السلام– أنه سيحيا ويموت في الأرض، وأنّ تقديم ﴿فِيهَا﴾ يفيد الاختصاص، فلن تظهر حياة على كوكب آخر غير الأرض. فاستدل بعض العلماء ذلك من قوله تعالى: ﴿فِيهَا تَحۡيَوۡنَ﴾ ومن آيات أخرى، أنه لن يكتشف العلم –مهما تقدم– مكانًا يصلح للحياة غير الأرض، ورد عليهم بعض العلماء بأن الآية غير صريحة.

[٢] [عن أبي هريرة:] ما سَلِمناهم منذُ حاربناهم وما تركَ منهم شيئًا خِيفَةً فليس منّا [يعني الحيّاتِ]
ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢)، تخريج مشكاة المصابيح ١٣٢/٤ • [حسن كما قال في المقدمة] • أخرجه أبو داود (٥٢٤٨)، وأحمد (١٠٧٤١) باختلاف يسير.

ذكرت هذا المبحث هنا -رغم عدم أهميته الآن- لنقطة مهمة، فلنفترض اكتشاف حياة خارج الأرض، رغم أن فريقًا من العلماء استنبط من آيات القرآن -منها هذه الآية- أنه لا توجد حياة خارج الأرض، لكن لنفترض أنه تم اكتشاف ذلك، هل سنكذب القرآن حينها ونقول إن العلم الحديث أثبت شيئًا مضادًا للقرآن؟ فننكر آيات القرآن ونبدأ نُدخل الريبة والشك في صدورنا تجاه القرآن؟ لو افترضنا -جدلًا- اكتشاف وجود حياة فعلًا خارج الأرض، هل معنى هذا أن هناك تصادم بين العلم الواقعي -الذي أصبح واقعًا- وبين القرآن؟ أم أين حصل التصادم؟

الإجابة أن التصادم حدث بين العلم واستنباط هذا الرجل -المفسر-؛ لأن هذا نصٌ غير قطعي، وهذه إشكالية أحياناً تحدث فيما يسمى بـ "الإعجاز العلمي في القرآن". من المفترض أن الإعجاز البلاغي أيضًا هو من العلم والإعجاز التشريعي هو من العلم، فجعل مسمى الإعجاز العلمي مقتصرًا على الإعجاز في العلوم الدنيوية فقط -وأن اللغة والتشريع والتربية لا يسمى إعجازًا علميًا- هذه مسألة متأثرة بالتقسيم المعاصر للعلوم.

فالشاهد لو أنّ بعض العلماء في قديم الزمان استنبط من القرآن -على سبيل المثال- أنّ الأرض ليست كروية وبعضهم -منهم شيخ الإسلام ابن تيمية- استنبط أنها كروية -وهذا هو الاستنباط الأكثر اجماعًا-، وثبت يقينًا أن الأرض كروية، وهناك فريق استنبط أن الأرض ليست كروية من القرآن، فهنا هل اكتشاف أن الأرض كروية يصادم القرآن؟ هذا لا يصادم القرآن، بل يصادم استنباط هذا العالم، فهو الذي أخطأ في هذا الاستنباط.

فلا تُعَارَض الاستنباطات بالعلم الذي أُثبِتَ يقيناً، حيث لا يوجد معارضة هنا، بل نقدم العلم اليقيني، وفي هذه الحالة نحن لا نقدم العلم على القرآن -بل على الاستنباطات الاجتهادية-، لكن لو كان النص قطعي الدلالة -لا يوجد خلاف في دلالته- وقطعي الثبوت -والقرآن قطعي الثبوت- فحينها يقدم النص.

وهذه المسألة من الشبهات، فللأسف أجد أحدهم يقول: "أنا عندي شك في القرآن"، وأنه بدأ يتجه إلى الإلحاد، فأسأله عن السبب، فيقول: "قرأت فتوى لأحد العلماء أن الأرض ليست كروية، لكن اكتشف العلم الآن أنها كروية، فبدأت أشك في الدين".

هذا الشخص يختلق الحجج ليشك في الدين، حيث لا يوجد علاقة قطعية بين تفسير العلماء للنصوص والعلم اليقيني. هل أخبرنا ربنا -سبحانه وتعالى- أن الأرض ليست كروية بشكل صريح وقاطع؟ هل أجمع العلماء المسلمون قاطبةً على أن الأرض ليست كروية ولدينا نص صريح قطعي الدلالة قطعي الثبوت في ذلك؟ لا، لا يوجد، فبالتالي هذه الخلافات لا تجعل الإنسان يشك في دينه.

يقول تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾[الأعراف ٢٥]، ثم بدأت أربع نداءات تبدأ بـ ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾، واختصت سورة الأعراف بهذا النداء، حيث جاء قوله ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾: في أربعة مواطن متتالية في السورة، وهم:

- قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا...﴾[الأعراف ٢٦].
- وقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ...﴾[الأعراف ٢٧].
- وقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ...﴾[الأعراف ٣١].
- وقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ...﴾[الأعراف ٣٥].

حاول بعض العلماء الوقوف مع هذه النداءات الأربع ومعرفة سبب مجيء هذا النداء -﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾- في هذه السورة تحديدًا، وهذا لم يأتِ في سورة غيرها إلا في موطن سأشير إليه. لماذا جاء نداء ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾في سورة الأعراف؟ ففي سور كثيرة كان النداء﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ أو ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾.

إذًا حينما ينادي الله -عز وجل- على الناس يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أو ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾أو ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾، لكن هنا -في سورة الأعراف- كان التخصيص في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾.

حاول بعضهم أن يجمع النداءات الأربع ويستخلص المعنى الأساسي منها، فنجد **المعنى الأساسي من النداءات الأربع يركز على قضية: اتقاء الفتنة الأولى التي وقع فيها آدم عليه السلام**، وأن الغرض الأساسي للشيطان هو التعري، بل إن الشيطان يريد أن يستمر هذا التعري حتى في المساجد، ليس فقط كشهوة عابرة، يريد الشيطان نقل المعصية إلى مكان الطاعة.

فجاء الأمر المضاد –لهذا التعري– في قوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾[الأعراف ٣١]، والأمر الرابع في قوله:﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ﴾[الأعراف ٣٥] هو اتباع الرسل، وهو محور أساسي في سورة الأعراف.

أعتذر عن التكلم بسرعة، والموضوعات مركزة، لكننا قلنا أن هذا الدرس مليء بالمعلومات، فأرجو منكم التركيز والكتابة.

حاول بعض العلماء التوقف مع هذه النداءات، فجمع بعضهم النداءات الأربع، وبعضهم قال إن هناك خاصية معينة لكلمة ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾.

أولًا: جاء هذا النداء بعد القصة –الأكل من الشجرة ونزول آدم عليه السلام وزوجه إلى الأرض– مباشرة، فالمراد هو أن تذكروا يا بني آدم ما حدث مع أبيكم آدم –عليه السلام– ولا تقعوا في مثل ما وقع، فآدم لم يكن يمتلك خبرة، لكنكم الآن تمتلكون هذه الخبرة. آدم –عليه السلام– لم يعصِ من قبل، لم يتعامل مع الشيطان من قبل، فكان تعامله معه أول تعامل، وكان وقوعه أول وقوع، وكانت خطيئته أول خطيئة؛ فقد يكون معذورًا، لكنكم ليس لديكم هذا العذر، فيا بني آدم تذكروا جيدًا ما حدث مع أبيكم، تذكروا دائمًا المقصد الرئيسي للشيطان مع أبيكم أو مع أبويكم.

أشار الدكتور فريد الأنصاري في كتاب "جمالية الدين" إلى أنّ نداء الإنسان له مقصد معين، ونداء ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ يشير إلى الضعف الذي في الإنسان، فدائمًا تأتي ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ للتذكير والتنبيه إلى الضعف الذي في بني آدم. نداء ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ في القرآن يلمس شيئًا معينًا داخل الإنسان، ونداء ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾ للتذكير بالعبودية. فبمَ تذكرنا ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾؟

تذكرنا بالضعف الذي داخل الإنسان؛ حتى يتنبه لذلك، جميعنا داخلنا ضعف معين، وعندما تسمع ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ تذكر علاقتك بآدم –عليه السلام– وتذكر وقوعه –عليه السلام –؛ حتى لا تقع مثل ما وقع.

لذلك ورد نداء ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾في موطنين آخرين غير النداءات الأربع التي سورة الأعراف –فيما أذكر ربما يكون هناك مواطن أخرى في القرآن–:

١. قال تعالى في سورة يس: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾[يس ٦٠]كان أيضًا تذكيرًا بالعهد.

٢. ومعنا في سورة الأعراف أيضاً ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ...﴾[الأعراف ١٧٢] كان أيضًا العهد والميثاق.

فنداء {بَنِي آدَمَ} في القرآن يدور حول التذكير بالعهد والميثاق والتنبيه للضعف الذي داخل الإنسان، فجاءت النداءات الأربع المتتالية لتتذكر هذه العلاقة التي بينك وبين أبيك آدم -عليه السلام-، وحتى تتنبه وتكون في أشد الاستعداد لمواجهة الشيطان وأن تتخذه عدوًا.

قال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾،فجاءت النداءات الأربع بعد القصة مباشرةً لتثأر لأبيك ولتستثير بداخلك الثأر وأن تتذكر هذا المشهد الذي حدث مع أبيك في ظهور السوءة وفي خروجه من الجنة وفي نزوله إلى الشقاء والعناء. فتذكر هذا المشهد دائمًا يجعلك تحترز في كل وسوسة تأتى إليك من الشيطان، فتحترز في كل وسوسة يأتي بها الشيطان إليك ليصرفك عن منهج الله -سبحانه وتعالى-، وتتذكر أن غرض الشيطان الرئيسي هو التعري والإخراج من الجنة، يريد الشيطان أن يصل بنا إلى الخروج من الجنة.

يقول تعال: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[الأعراف ٢٦].

أول نداء لبني آدم كان الحل لما حدث من ظهور السَّوءَة، حيث ظهرت السوءة في الجنة كما في قوله تعالى: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾[الأعراف ٢٢]، حين نزلا إلى الأرض كان النداء الأول لهما أن ربنا -سبحانه وتعالى- يُصلح لهما ما حدث بأنه أنزل لهم لباس ليُواري سوءاتهم، كأن أول شيء يجب أن يقوم به الإنسان بعد التوبة أن يَتَّقي أسباب الرجوع إلى الذنب مرة أخرى ويحترز ويضع حواجز ويستر ما حدث ويمحو آثار الذنب.

فكان أول نداء نعمةً من نعم الله -سبحانه وتعالى- وآيةً من آيات الله -سبحانه وتعالى-؛ حتى يستر أثر الذنب.إذًا **عندما يعصي الإنسانُ أول شيء يقوم به بعد التوبة أن يستر آثار هذا الذنب ويبتعد عن أماكن المعصية ويكثر من الاستغفار.**

فكما يوجد ستر حسي للعورة هناك أيضا ستر للقلب، فهذا القلب الذي وقع في الشهوة يحتاج إلى ستر ولباس؛ لذلك قال ربنا -سبحانه وتعالى- ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾[الأعراف ٢٦]؛ حتى ينصرف القلب عن المعصية ولا يتذكر أَكْلَة الشجرة ولا يتذكر هذه الشهوة ولا يتذكر هذه المعصية.

يقول تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗا﴾، قال كثير من أهل العلم إن الريش: هو اللباس المستخدم في التزيين، واللباس في قوله: ﴿أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا﴾ هو اللباس الضروري لستر العورة، فالإنسان بوسعه أن يرتدى إزارًا أو لباسًا ضروريًا ليغطي عورته، ثم بعد ذلك يتجمل الإنسان ويتزين، وهذا لا حرج فيه -أن يتزين الإنسان ويتجمل-، إذًا فالريش للتجمل، لكن قوله: ﴿أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا﴾ هذا لستر العورة الرئيسة.

يقول تعالى: ﴿قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾، انظر كيف يريد الشيطان أن يريهما سوأتهما، وانظر كيف يريد الله -عز وجل- أن يسترهما، هكذا دائمًا الذين يتبعون الشهوات يريدون أن يظهروا السوءات، والله -عز وجل-، يريد لنا السِتر -سبحانه وتعالى-؛ فهو سِتير -سبحانه وتعالى-، فيقول تعالى: ﴿أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗا﴾.

ثم قال ربنا: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾، قراءتنا -قراءة حفص- بالرفع، في قوله: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ يوجد استئناف، والمعنى: أنه أنزل عليكم لباسًا هذا اللباس لتغطية السَّوءَة والعورة الحسية، لكن القلب أيضا مليء بالشهوات والأمراض فيحتاج أيضًا إلى ستر ووقاية وبُعد؛ لذلك قال ربنا -عز وجل- لسيدنا آدم -عليه السلام-: ﴿لَا تَقۡرَبَا﴾[الأعراف ١٩] أي وقايةً لكما لا تقربا هذه الشجرة. نقول هنا أن الوقاية خير من العلاج، فجاءت كلمة ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ [الأعراف ٢٦]، والتقوى من الوقاية، أي أن تتقى وتحترز قبل أن تقع في المعصية، فأنت تحتاج على قلبك أيضا ستر ووقاية وبُعد بينك وبين المعاصي، تحتاج إلى مسافة -كما تكلمنا المرة الماضية- **أنه على قدر خطورة الشيء يكون الابتعاد عنه.**

فأنت تحتاج إلى نوع من الوقاية والبُعد عن الشهوات كتقليل الاختلاط مع النساء والابتعاد عن أماكن المعصية حتى لو كان هذا الأمرُ مباحًا. وسوف نتكلم الآن - إن شاء الله - في سياق الآيات كيف تتطور الأمور من المباحات إلى المعصية ثم إلى الشرك وأن **الشيطان دائمًا ينظر إلى مآل الفعل.**

فالشيطان لا يتعجل؛ لذلك لا بد أن يكون الإنسان حكيمًا هو الآخر، وينظر إلى مآل الأفعال؛ فيتوقف عند المباحات التي قد تؤدي إلى الحرام، وقد يتعامل بنوع من اللين مع المكروهات التي يوقن أنها لا تتطور.

قد تتعجب من عالم يشدد في أمر مباح وقد يتساهل في أمر مكروه؛ لماذا؟ لأن هذا الأمر المكروه ليس محببًا إلى النفس وله دائمًا حد معين لا يتطور في غالب الأمر، لكن الأمر المباح قد يؤدي إلى الحرام كالاختلاط مثلًا فيتعامل الشاب مع فتاة شابة -وتستعر الشهوات وهو ليس متزوجًا-، قد يكون هذا التعامل -السطحي- مباحًا، لكن هذا المباح في الغالب يؤدي إلى حرام، فتجد العالم ينظر إلى مآل الأمر، لكن كثيرًا من عوام الناس لا ينظر إلى هذا المآل؛ فيتعجبون كيف شدد العالم في المباح وسكت وتعامل بنوع من اللين مع هذا المكروه. فقد يكون الأمر مكروهًا معين لكنه في الغالب لا يتطور، فالنظر إلى مآل الفعل أمر مهم.

ففي قوله: ﴿لِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾، قالوا المقصود بالتقوى هنا الخشية أو الإكثار من العمل الصالح أو السمت الصالح، واختار الطبري -كعادته- العموم، أي أن لباس التقوى هو كل شيء تلبسه على قلبك يجعل بينك وبين المعصية وقاية؛ فتتقي المعاصي. تكلم العلماء عن غرض تشبيه التقوى باللباس، فالليل سُمي باللباس في القرآن، والزوج للزوجة والزوجة للزوج شُبها باللباس، فما غرض تشبيه التقوى هنا باللباس؟

- اختار الطبري أن اللباس معناه أن يظهر عليك أثر الشيء أو عَينُه، أي أنك حين تلبس شيئًا إما أن أرى عليك عين الشيء -أي ذات الشيء- أي أنك تلبسها أمامي، وإما أرى أثر الشيء إذا كان معنويًا.

وذكر تعالى لفظ لباس في قوله: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ﴾[النحل ١١٢]، أي ظهر على هذه القرية آثار الجوع والخوف. وهذه الآية في سورة النحل آية معجزة، ذكرت الإذاقة مع الإلباس، فلم يقل -سبحانه وتعالى- (فأذاقها الله طعم الجوع والخوف)، ولم يقل (فألبسها الله لباس الجوع والخوف)، بل أتى بالذوق للدلالة على شدة الألم والدلالة على تغلغل هذا الألم، فعندما يذوق الإنسان شيئًا ما يصل إلى داخله، واللبس للعموم والشمول وظهور أثر ذلك الشيء.

يقول الطبري لباس التقوى أي: ما يظهر عليك من أثر التقوى في العمل الصالح، -ركزوا أذهانكم معي في هذا المعنى- فإذا غطت التقوى قلبك ظهر أثرها على الجوارح، **إذا كان القلب متقيًا ظهر ذلك الأثر على الجوارح**؛ فتجد العين تتقى النظر الحرام واليد تتقى المال الحرام والقدم تتقى الذهاب إلى أماكن الحرام، فهنا سُمي لباس التقوى. كان هذا اختيار الطبري في التشبيه -تشبيه التقوى باللباس-.

- أما الإمام ابن عاشور فقال: اللبس هنا يفيد الملازمة، وأن الليل مُلابس وملازم للإنسان، ويوجد تلازم بين الزوج والزوجة في اللبس، فهنا ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾[الأعراف ٢٦]أي أن هذه التقوى ملازمة للإنسان لا يخلعها، فقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾أي التقوى التي تلازمك ولا تفارقك في الغيب والشهادة، كما ورد في دعاء النبي –صلى الله عليه وسلم–: (أسألك خشيتك في الغيب والشهادة وكلمة الحق في الغضب والرضا)[٣]، فينبغي على الإنسان أن يحافظ على التقوى بالرغم من تغير الظروف.

يقول تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾، أي كما يهتم الإنسان بظاهره لا بد أن يهتم بباطنه، فكما يهتم الإنسان ويتجمل في ظاهره ويلبس اللباس الذي يغطي سوءته وعورته كذلك أيضًا لابد أن يهتم بباطنه، **بل الاهتمام بالباطن أولى** كما في قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾، أي أن الاهتمام بالباطن أولى، كما ورد عن النبي –صلى الله عليه وسلم–: (إنَّ الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجسادكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)[٤].

إذًا في قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ دلالة على أن الإنسان كما يهتم بالظاهر يجب أن يهتم بالباطن، ولا يعني ذلك إهمال الظاهر، كي لا يقول أحدهم: " القلب أهم شيء، والطاعات الخارجية ليست بتلك الأهمية"، أو عندما تكلم امرأة في الحجاب أو رجل في اللحية يقول: "هذا الأمر ليس مهمًا، بل الباطن هو المهم". لا يصح هذا، فكما يوجد اهتمام بالباطن فهناك أيضًا اهتمام بالظاهر، وكلما كان الباطن نقيًا ظهر ذلك على الظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾–بضم الآخر–؛ لأن هناك قراءة بفتح الآخر: ﴿وَلِبَاسَ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾، أي أنزل الله لباسَ التقوى، ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾والمقصود أن ستر العورة هو خير لكم. يقول

---

[٣][عن عمار بن ياسر:] كنّا جلوسًا في المسجدِ فدخَل عمّارُ بنُ ياسرٍ فصلّى صلاةً خفَّفها فمرَّ بنا فقيل له: يا أبا اليقظانِ خفَّفْتَ الصَّلاةَ قال: أوَخفيفةً رأيْتُموها؟ قُلْنا: نَعم قال: أما إنِّي قد دعَوْتُ فيها بدعاءٍ قد سمِعْتُه مِن رسولِ اللهِ ﷺ ثمَّ مضى فأتبَعه رجلٌ مِن القومِ قال عطاءٌ: اتَّبعه أَبي - ولكنَّه كرِه أنْ يقولَ: اتَّبَعْتُه - فسألَه عن الدُّعاءِ ثمَّ رجَع فأخبَرهم بالدُّعاءِ: (اللَّهمَّ بعِلْمِك الغيبَ وقدرتِك على الخَلْقِ أحيِني ما علِمْتَ الحياةَ خيرًا لي وتوفَّني إذا كانتِ الوفاةُ خيرًا لي اللَّهمَّ إنِّي أسألُك خشيتَك في الغيبِ والشَّهادةِ وكلمةَ العدلِ والحقِّ في الغضبِ والرِّضا وأسألُك القصدَ في الفقرِ والغِنى وأسألُك نعيمًا لا يَبيدُ وقرَّةَ عينٍ لا تنقطِعُ وأسألُك الرِّضا بعد القضاءِ وأسألُك بَرْدَ العيشِ بعدَ الموتِ وأسألُك لذَّةَ النَّظرِ إلى وجهِك وأسألُك الشَّوقَ إلى لقائِك في غيرِ ضرَّاءَ مُضرَّةٍ ولا فتنةٍ مُضلَّةٍ اللَّهمَّ زيِّنَّا بزينةِ الإيمانِ واجعَلْنا هداةً مُهتدينَ
ابن حبان (ت ٣٥٤)، صحيح ابن حبان ١٩٧١ • أخرجه في صحيحه

[٤][عن أبي هريرة:] إنَّ اللَّهَ لا يَنْظُرُ إلى صُوَرِكُمْ وأَمْوالِكُمْ، ولَكِنْ يَنْظُرُ إلى قُلُوبِكُمْ وأَعْمالِكُمْ.
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٢٥٦٤ • [صحيح] •

تعالى: ﴿يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ أي هذا اللباس الذي أنزله الله -عز وجل- خير لكم في دينكم.

يقول تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، آيات الله إما أن تأتى آيات تشريعية وإما تأتي آيات كونية من النعم.

- فإما يكون معنى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: هذا من تشريع الله لكم أن تستروا عوراتكم.
- وإما يكون المعنى أن هذا من نعم الله عليكم أن أنزل عليكم اللباس وعلمكم إياه وجعل في فطرتكم حب التستر. **قضية حب التستر من الفطرة**، كما سنرى أن الشيطان يريد أن يُعَاكِس هذه الفطرة كما في قوله -سبحانه وتعالى-: ﴿يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾[الأعراف ٢٧].

يقول تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾[الأعراف ٢٦]. النداء الثاني لبني آدم في قوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآ﴾[الأعراف ٢٧].

النداء الأول كان تصحيحًا للخطأ الذي وقع فيه آدم -عليه السلام-، وأن الله -عز وجل- لم يتركه، بل أعطاه حلًا يصحح به ما حدث له بسبب الوقوع في المعصية. يقول تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾، وقف العلماء هنا في معنى قوله تعالى: ﴿لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾.

فقالوا كان أصل الجملة [لا يفتننكم الشيطان فيخرجكم من الجنة كما فتن أبويكم فأخرجهما من الجنة]، سأكررها مرة أخرى، إذًا أصل الآية -كما قال العلماء- جملتين وجملتين أي أربع جمل، [يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان فيخرجكم من الجنة كما فتن أبويكم فأخرجهما من الجنة]، فحُذِفت جملة من أول جملتين وجملة من ثاني جملتين ووضعت الجمل المتبقية معًا، وهذا ما يسمونه الاحتباك، فبدلًا من أن نقول أربع جمل نحذف جملة من هنا وجملة من هنا ونضم الجملتين المتبقيتين، فيفهم من هذا الضم أن مآل المعاصي التي تؤدى إلى الشرك هو الإخراج من الجنة. يقول تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾، أي أن الشيطان يبحث داخلكم عن مواطن الفتنة.

يقول تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ كما فتن أبويكم فأخرجهما من الجنة، فاحذر واعلم أن مآل اتباع خطوات الشيطان هو الخروج من الجنة -معاذ الله-.

يقول تعالى: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾، في الآية استثارة للغضب لما حدث لأبينا آدم -عليه السلام- وحث على الأخذ بالثأر وعدم الاستسلام للشيطان، تَذَكُّر هذه القصة يجعل داخلك هذا المعنى -أن تثأر لأبيك آدم-.

يقول تعالى: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾، بالرغم من أن علاقتنا بأبينا آدم علاقة أجداد فإن في الآية النسب مباشر، فقال تعالى: ﴿أَبَوَيۡكُم﴾، فلم يقل -عز وجل-: (كما أخرج أجدادكم)، لكن قال -تعالى-: ﴿أَبَوَيۡكُم﴾ كأن هناك علاقة مباشرة بينك وبين أبيك آدم -عليه السلام-.

يقول تعالى: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ﴾، قالوا هذا النزع يكون حال -في أثناء- الخروج ومن أسباب الخروج، يقول تعالى: ﴿يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾، تأمل الفعل [ينزع]، دائمًا ما يكون النزع أمامه قوة مضادة كما في قوله تعالى: ﴿تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾[آل عمران ٢٦]، فلا يوجد أحد يترك الملك حين ينتزع منه، فلا تجد الإنسان يتنازل عن الملك ويخبرك: "أنا لم أعد أحتاج الملك، لقد مللته، هذا يكفي"، فكرسي الملك دائمًا يكون عليه غراء، من يجلس عليه يلتصق به ولا يريد أن يتركه أبدًا؛ فلذلك يتركه نَزعًا كما في قوله تعالى: ﴿وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾.

فدائمًا النزع فيه مضادة، يقول تعالى: ﴿يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾[الأعراف ٢٧]، أي أن الشيطان يفعل الآن فعلًا مضادًا لفطرة الإنسان، **فصراع الفطرة مع الشهوة هو الصراع الذي يحدث داخلك وأنت تفعل فعلًا حرامًا**، فعلى سبيل المثال: المرأة التي تتبرج يحدث داخلها منازعة بين الفطرة والشهوة، الشهوة تريد النزع والفطرة تريد الستر، هذه المنازعة تحدث داخل قلب كل إنسان وفطرته وهو مقدم على المعصية. فهذه اللَّمة التي تأتيه من الملَك، وهذه اللَّمة التي تأتيه من الشيطان، أَيَّتهما يغلب؟! يقول تعالى: ﴿يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾؛ لأن هذا أمرٌ مضاد للفطرة.

هناك إشارة جيدة أشار إليها بعض العلماء في مسألة الفطرة وحب الستر، حينما اتهمَ بنو إسرائيل موسى -عليه السلام- بعيب في الخِلْقة وقالوا إنه آدر، وكان بنو إسرائيل يغتسلون عراة، لكن موسى -عليه السلام- لم يكن يغتسل معهم وهو عار؛ لأنه كان حييًا، فكان يختبئ ويغتسل.

كان من الممكن أن يقول ربنا –عز وجل– لسيدنا موسى –عليه السلام– اغتسل أمامهم عار؛ حتى يظهر الله –عز وجل– براءته، لكن أمر الله الصخر بأن يتحرك ولم يأمر موسى بشيء مغاير لفطرته – التعري–، فالله تعالى يحرك الصخرة ولا يغير الفطرة، أمر الله الصخر أن يتحرك بملابس موسى –عليه السلام–؛ حتى يرى الناس موسى –عليه السلام– فيتعجبوا من حسن خلقته، ولم يأمر موسى –عليه السلام– مباشرة بالاغتسال عارٍ. **فقضية تغيير الفطرة أمر شديد وذنب كبير**، فانظر كيف حرك الله – عز وجل– الصخرة ولم يأمر بأمر مغاير للفطرة ومضاد لها– قضية التعري –.

يقول تعالى: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾، وتكلمنا عن مسألة أن الشيطان يبحث عن هذه اللحظة التي تظهر فيها السَّوءة، فمشهد وقوف الإنسان بعد أن ظهرت سوءته رغمًا عنه وهو عار مشهد فيه ضعف ويجعل الإنسان يحتقر نفسه. قد تجعل لحظات الضعف تلك الإنسان ينهار ويسقط في حبائل الشيطان وفي مكائده ويستسلم تمامًا؛ لذلك قلنا إن المعصية تصيب بنوع من الوهن

((وأن اللحظات التي بعد المعصية هي من أخطر اللحظات التي يطرق عليها الشيطان مباشرةً))

حيث يريد الشيطان أن يصل بك إلى اليأس، فمسألة: ﴿لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾هذا المشهد يقصده الشيطان لتحتقر نفسك. عندما ينتهي الإنسان من المعصية ثم يعاتب نفسه، لو أنه أغرق في المعاتبة لوقع، فلا بد أن يتوازن الإنسان، فيندم على المعصية ثم ينطلق في التوبة، لا أن يتوقف كثيرًا عند هذه المرحلة، يؤدي التوقف كثيرًا في مرحلة المعاتبة دون عمل صالح إلى الوقوع. قال ربنا –سبحانه وتعالى–: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[هود ١١٤]، جاء رجل يشتكي من أنه وقع في شهوة فقَّبل امرأة، فنزلت الآية–آخر سورة هود– لتبين له كيفية الخروج من هذه المعصية، قال تعالى:﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، أي أنه عليه أن يكثر من الحسنات.

فليست القضية نوع من المحزنة والوقوف كثيرًا عند هذا الذنب، بل إن هذا يؤدي إلى نوع من الانهيار النفسي، فالوقوف كثيرًا في هذه المرحلة يؤدي إلى نوع من الانهيار، لكن العمل الصالح يُشعر الإنسان أنه قادر على النجاح وقادر على الخروج من الوحل والتَّطَهر. لكن الشيطان يريد أن يُبْقِيك في هذه المرحلة، بل يجعلك تسأل يائسًا محبطًا هل لي من توبة؟ أيمكنني الخروج من هذا المكان مرة أخرى؟ أيمكنني الخروج من الوحل؟ أيمكنني التطهر؟

يريد الشيطان أن يصل بك إلى هذه المرحلة، أن تنظر إلى نفسك وأنت في هذه الصورة وأنت عار بعد أن نزعت لباس التقوى، يريد أن يقف بك كثيرًا في هذه المرحلة. يقول تعالى: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾[الأعراف ٢٧]،مشهد أن ترى سوءتك وسوءة أخيك وأن يرى أخوك سوءتك هذا المشهد قد يجعل الإنسان يصاب بالإحباط واليأس.

يقول تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾، في الآية بيان لأسلحة الشيطان، يحذرنا الله – عز وجل– أنه عدو وأنه يدرسنا وأن هذه الدراسة التي يقوم بها الشيطان ينقلها إلى الشياطين الصغار كما في قوله تعالى:﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾، إنها مدرسة، أجيال تحارب بني آدم، ويفكرون ما مدخل هذا الإنسان، وحاولت مع هذا الإنسان تلك الطريقة، ويرسل إبليس –عليه لعنة الله– شيطانًا لرجل ليجرب معه مسألة المال أو النساء أو الشهرة أو يجرب معه أشياء أخرى؛ حتى يعلم كيف يوقعونه. يقول تعالى: ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾[الأنعام ١١٢]، أي يستفيد شياطين الإنس والجن من بعضهم بعضًا، ويستفيد شياطين الجن خبرات من بعضهم بعضًا.

يقول تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[الأعراف ٢٧]، يحذر الله –عز وجل– الإنسان وينذره، فإذا أصر الإنسان على المعصية يبتليه الله –عز وجل– بعقوبة –ضراء– تجعله يرجع، فإذا ظل الإنسان مصرًا على المعصية ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾[النساء ١١٥]. يقول تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ﴾[النساء ١١٥]، أي يوضح الله الهدى لعباده، – ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾[التوبة ١١٥]، أي تظهر مرحلة تبيين الحق في البداية–.

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾[النساء ١١٥]، يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾[التوبة ١١٥]، أي أن الله هداهم أولًا وعرفهم الطريق الصحيح والطريق الخاطئ كي لا يسيروا فيه. فالله –عز وجل– هداهم وبيّن لهم كيف يتقون المعصية، فإن هم أصروا على الضلال يضلهم الله، فالذي يختار المعصية بعد كل هذا يجعله الله –عز وجل– وليًا –صديقًا– للشيطان، وهنا مرحلة تحول العدو إلى وَلِيّ، يقول تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾[الكهف ٥٠]. **أتترك الله! وتتخذ الشياطين أولياء!**

فمن العقوبة أن يُسَهل الله-عز وجل- هذه العلاقة ويُيَسرها، هذه الموالاة بين العاصي المصر وبين الشيطان ييسرها الله -عز وجل-؛ لأنه -الشخص العاصي- اختار ذلك. يقول تعالى: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾[النساء ١١٥]،﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾[الليل ١٠]؛ لأنه كذب بالحسنى ومنع الطاعة ومنع المال كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾[الليل ٨-١٠]، فيسهل الله له طريقًا إلى النار -معاذ بالله-، هو الذي اختار ذلك بعد أن أنذره الله -عز وجل-.

وستأتي هذه السنة أيضًا مفصلة معنا في منتصف السورة قُبَيْل بداية قصة موسى -عليه السلام-، هناك فاصل في سورة الأعراف بين قَصَص الأنبياء كلهم وبين قصة موسى -عليه السلام-، في هذا الفاصل أيضًا سنن من سنن الله -عز وجل- في معاملة الناس، منها هذه السنة في المعاملة، أن الله -عز وجل- **ينذر** ثم **يبتلي** ثم **ييسر المعصية**. يُنذر أولًا فيرسل الرسل، فإذا أعرض الناس أرسل عليهم البلاء ليعودوا، فإذا أصر الناس فتح عليهم باب السراء وفتح عليهم أبواب كل شيء.

يقول تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[الأعراف ٢٧]، فأصبح هناك نوعًا من الصداقة مع الشيطان بعد أن كان عدوًا، ومن صور هذه الولاية، كيف يتولى الإنسان الشيطان؟ وكيف يصبح وليًا له؟

أن ذلك الشخص ييسر للشيطان انتشار المعصية في المجتمع. فمن صور موالاة الإنسان للشيطان أن هذا الإنسان الشيطاني الذي أصبح من شياطين الإنس، فترقى وأصبح مع الشيطان، وذلك عن طريق قيامه بأفعال تساعد مآرب الشيطان، وذلك عن طريق:

- أن يفعل الفاحشة كما في قوله تعالى:﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾[الأعراف ٢٨].
- أن يسهل انتشارها في المجتمع كما في قوله تعالى:﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾[الأعراف ٢٨].
- يزعم أن الله أمر بها كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾[الأعراف ٢٨].

هذه الآية آية مهمة جدًا، فهي تبين لنا كيف تتطور المعصية في مجتمع، عندما تفعل المعصية في مجتمع تسمى فاحشة كما في قوله تعالى: :﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾، وفاحشة من الفُحش، أي الشيء المبغض للنفس بالفِطرة حتى قبل أن يعلم الإنسان أن هذا من الشرع هو يبغضه كالظلم أو أكل مال اليتيم أو التعري...، قلنا إن أبوينا ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ﴾[الأعراف ٢٢] قبل أن يأتيهما الأمر بالستر، فلم يأمرهما الله بالستر، فهذا أمر في الفطرة أنهما سعيا إلى التستر قبل أن يأتيهما الأمر،إذًا هذا أمر مركوز في الفطرة.

إذًا هناك فاحشة مبغضة إلى النفس أصلًا، فأول ما تُفعل معصية ما كأن تتعرى امرأة وتتبرج أو يفعل الإنسان معصية معينة، أول شيء يقابله المجتمع هو التنكر، فيحزن ويتفاجأ من هذا الفعل، فكيف تفعل المرأة هذا الفعل؟ وكيف يفعل الرجل هذا الفعل؟ فيستنكر المجتمع ذلك الفعل. **لكن ماذا يحدث؟**

يصر العاصي على تمرير معصيته وعلى أن هذه الفاحشة تصبح شيئًا عاديًا، فيستعمل الضغط المجتمعي، يخبرك أنه لا بأس بذلك فالمجتمع كله هكذا، والتاريخ دائمًا ما كان هكذا، والأجيال السابقة كلها كانت هكذا كما في قوله تعالى: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾[الأعراف ٢٨]، حتى يحول المعصية من فاحشة من أمر مبغض إلى أمر مقبول! فيصبح أمر لا تشعر النفس ببشاعته.

عندما كانت الناس تسمع مثلًا كلمة إلحاد أو شذوذ أو غيره تشعر ببشاعة هذا الأمر على الفور وتنفر منه، لكن كثرة تكرار ذلك في الأفلام والمسلسلات والبرامج والنقاشات؛ يكسِر هذا الحاجز. من الممكن أن تستغرب أن شخصًا يستضيف في برنامجه ملحدًا، حتى لو كان سيرد على شبهاته أو يطرده في نهاية الحلقة، أو تستغرب أنّه يناقش قضية معينة هي بالفطرة مُبغضة، لكن هذا الشخص الآن يكسر هذا الحاجز النفسي، هذا الأمر المبغض الفاحش المستنكَر القبيح يتم كسره تدريجيًا داخل النفوس، فيصبح أمرًا عاديًا.

قديمًا عندما كنت تسمع لمثل ذلك الأمر تستنكر وتغضب، قديمًا عندما كان أي شخص يسير في الشارع وقت الصلاة كان الناس يتعجبون من فعله! كيف له ذلك؟ إن الصلاة قائمة! ماذا يفعل هذا في الشارع!! لكن الآن انقلبت الموازين وأصبح القول: "ماذا يفعل أولئك الناس في المسجد ساعة الصلاة؟ لمَ لا يصلون في أي مكانٍ آخر؟ فالعمل عبادة ولا يلزم الذهاب للمسجد، هذا أمر غريب للغاية، هل يلزم للمعلم ترك المدرسة أو للموظف ترك العمل للصلاة!"، إذًا أصبح الأمر غريبًا جدًا، وأصبح الوضع معكوسًا.

يجعل استمرارُ الإنسان وإصراره والضغطُ المجتمعي –الذي يقوم به– الأمرَ الفاحشَ بعدما كان فاحشةً وأمرًا قبيحًا أمرًا عاديًا مقبولًا. هذا التطور تكلمنا عنه منذ قليل، حينما تكلمنا عن مآل الأفعال، وأن العالِم لا بد أن يتدخل ليوقف هذا التطور، قلنا إن العالم ينظر إلى مآل الفعل، بل قد يتعامل مع المباح ويشدد فيه.

أول ما ظهر الشرك في العالم في أمة ظهر بسبب أمرٍ كان مباحًا -كما يقول بعض أهل العلم-، بل لم يكن أمرًا مباحًا فقط، بل فعلوا هذا الأمر لكي يزدادوا طاعةً! فالشيطان دخل لهم من مدخل معين، وظهر الشرك في عهد نوح -عليه السلام-. قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَ ٰحِدَةً﴾[البقرة ٢١٣]، اختلف أهل العلم في تفسير الآية، قال جمهور المفسرين: أي كان الناس أمةً واحدةً على التوحيد. ظهر الشرك بوجود أناس صالحين مثل: ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر؟ كانوا صالحين يعبدون الله ثم ماتوا، فأراد الناس، أو أوعز الشيطان إليهم، أن يتذكروا هؤلاء الصالحين؛ حتى يقوموا وينشطوا للعبادة. انظر لمدخل الشيطان كيف يدخل لك! فيخبرك أنه لأجل العبادة، فما هو رأيك أن نصور هؤلاء -الصالحين- في تماثيل معينة وصور معينة؟ نصور هذه الأشياء ونضع مثل هذه التماثيل في الميادين أو في البيوت؛ فكلما رأينا هذه التماثيل ازددنا عبادة، وبالفعل قد يساعدهم الشيطان على زيادة العبادة.

أشار الشيخ الطريفي إلى معنى جميل في مقالة رائعة اسمها (المجسمات) أو (مشروع المجسمات)، حيث أرادوا بناء متحفًا يضم أشياء النبي -صلى الله عليه وسلم- في مكة أو في المدينة، أيًا كان الخلاف الفقهي الذي أثير حول هذا المتحف، يقول الشيخ الطريفي: "إن العقائد لها دورة حياة مثلما للإنسان أجل، العقائد لها آجال مثل الإنسان، لكن أجل العقيدة أطول بكثير من عمر الإنسان، فتبدأ العقيدة في أول أمرها من المباحات، وعمر الإنسان ستون سنة، ويبدأ يظهر الشرك الذي بداخلها بعد خمسمئة سنة!"، هل لك أن تتخيل ذلك؟ أن عقيدة ما — معتقد ما- تبدأ بأمر مباح أو أمر مستحب ثم مباح ثم مكروه ثم حرام ثم شرك! وهذه هي دورة حياة عقيدة معينة وكيف تصل إلى الشرك.

ولأن حياة الإنسان قصيرة فغالبًا يظهر الشرك في الأجيال التالية، فلا يظهر الشرك في الجيل نفسه الذي ظهرت فيه المشكلة، فلم يظهر الشرك في الجيل الذي ظهر فيه تماثيل ود وسواع، بل قال ابن عباس في البخاري: "حتى إذا تنسّخ العلم"، أي مات العلماء وقل العلم في المجتمع، وظل يقل بالتدريج؛ حتى ظهر جيل لا يعلم شيئًا عن الدين ووجد هذه التماثيل فأتاه الشيطان قائلًا: "كانوا يعبدونها"! قد تستغرب - لأن أعمارنا قصيرة- ولا تصدق أن يؤدي ذلك الموضوع إلى الشرك.

حتى في قصة إساف ونائلة، في تفسير قوله -سبحانه وتعالى-: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾[البقرة ١٥٨]. ماذا حدث؟ ولِمَ نزلت هذه الآية؟

أتى المشركون بصنمٍ على هيئة رجل اسمه إساف ووضعوه على الصفا وصنم على هيئة امرأة اسمها نائلة ووضعوها على المروة، القصة أن إساف ونائلة –ذكر الإمام ابن كثير في البداية والنهاية وغيره– أنهما فجرا في الكعبة –سواء زنيا أو قبَّلها هو– المهم أنهما فجرا في الكعبة؛ فمسخهما الله –عز وجل– حجرين؛ فحتى يتذكر الناس هذه المعصية ولا يفعلوها في الأماكن المقدسة؛ قاموا بوضع إساف على الصفا، ونائلة على المروة، لكن مع طول الزمان عُبدا من دون الله! أتتخيل ذلك! زنيا أو فجرا في الكعبة ثم يُعبدان من دون الله! لذلك التطور في المعصية لا يتوقف عند حدٍ معين.

مثلما تتطور المعصية في مجتمع من الممكن أن تندثر الطاعة أيضًا في المجتمع؛ فينشأ جيل تحدثه عن شيءٍ في الدين يخبرك: ﴿مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[٥]، ومن ممكن أن هذا الأمر الذي تحدثه عنه في الدين هو آيات مسطورة في القرآن ومحفوظة! ومع ذلك يقول: "أول مرة أسمع بهذا الكلام! هل هذا معقول؟! أن الإسلام هو الدين العالمي الذي يجب أن ننشره للعالم وهو الدين الوحيد الحق وما سواه من الأديان باطل؟ ما هذا الكلام الغريب؟ وما هذا التشدد! من أين هذا الكلام؟!". فتتعجب: "من أين هذا! هل أنت تعيش معنا هنا؟ هذا الكلام في القرآن!".

إذًا تجد أصلًا من الأصول قد يُغيّب مع طول الزمان. لذلك دور العلماء أن يتدخلوا في بدايات ظهور المعاصي التي يكون –غالبًا– مآلها الشرك، وعند اندثار العلم أيضًا، **فالعلم كيف يندثر؟ بموت العلماء.**

لنرى كيف تتطور المعاصي، أولًا: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾[الأعراف ٢٨]، يكون اسمها في البداية فاحشة، ثم يريدون أن يحدثوا نوعًا من القَبول المجتمعي لتلك المعصية؛ فيقولون تلك الفاحشة موجودة منذ القدم لسنا نحن أول من فعلها، بل ﴿وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا﴾، هل تريدون أن تسبوا آباءنا! أتتهموهم بالفحش؟ وبعد فترة يقولون إنها من الدين﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، فتتحول الفاحشة إلى طاعة مثلما كان إساف ونائلة عبرة لمن فعل الفاحشة ثم بعدها عُبدا من دون الله؛ فأصبح هناك عبادة جديدة ودين اسمه إساف ونائلة! إذًا الأمر يتطور من الفاحشة إلى أن يصبح طاعة، فهم يشرعون الفاحشة.

[٥] ذكرت هذه الآية في [المؤمنون ٢٤] و[القصص ٣٦].

فالرقص على سبيل المثال –أن ترقص المرأة وتتعرى– أمرٌ مبغض، فأين الغيرة والنخوة والرجولة! لكنهم يزينونه ويسمونه فنًا! –كما كان الأمر حين سمى إبليس الشجرة "شجرة الخلد" ليزينها لأبينا آدم–عليه السلام–.

أريدك أن تتخيل معي مشهدًا –كان يضرب به الأخوة المثل عندما يحبون أن يحدثوا شخصًا عن إدخال التلفاز الذي به الأفلام والمسلسلات في المنزل–، تخيل لو أنك تمشي في الشارع ووجدت شابًا يُقبّل فتاة في الشارع، فتغار وتستنكر عليهم فعلهم ذلك قائلًا: "ما هذا الذي تفعلونه! أتقبلون بعضكم في الشارع!"، فرد عليك الشاب وقال لك: "أين نقبل بعضنا إذًا؟"، فأخبرته أن يأتي معك، وأخذتهم عندك بالبيت، وأحضرت طاولة الطعام ثم أجلستهم عليها وقلت لهم: "هنا!" ثم أحضرت زوجتك وأطفالك ليشاهدوهم، هل هذا أمر يقوم به شخص عاقل؟ فذلك هو حال الإنسان الذي يشاهد الأفلام والمسلسلات التي يحدث فيها هذا وهو يجلس هو وزوجته وأولاده! هذا هو المشهد نفسه! فانظر كيف أصبح الأمر عاديًا. كان الأمر في البداية قبيحًا، بعد ذلك أصبح فنًا، بعد ذلك أصبح أمرًا مستحبًا ومن إدخال السرور على قلب مسلم! ثم يصبح ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾.

فتلك الفنانة تتعبد بفنها –على حد زعمهم–، أتنتقدها بدلًا من دعائك لها؟ هذا ما يزعمه الناس لكنه خطأ. فانظر كيف يتطور الأمر! فانظر كيف يتطور الأمر ويصدقه الناس؛ يحب الإنسان أن يشرعن الشيء المحرم؛ حتى يفر من النفس اللوامة ويهرب منها، فيشرعن الإنسان الحرام ويقول: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، فيفعلون الفاحشة ويقولون: "الله أمرنا بها"!

المقصود بالفاحشة هنا –وفقًا لجمهور المفسرين– هي التعري في الطواف، فقد كانوا يطوفون عراة حول البيت. وهذا أيضًا أحد معانٍ الآية ستة وعشرين: ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ﴾[الأعراف ٢٦]، أي أثناء الطواف، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[الأعراف ٣١] أي أثناء الطواف.

قال كثير من العلماء أن سياق هذه الآيات يتكلم عن أن التعري لا يأتي من الشهوة فقط –انظر إلى الشيطان! –، حيث دخل الشيطان لأبينا آدم من شهوة الشجرة؛ فأدى إلى التعري، بل الشيطان له مداخل أخرى. كيف أوصلهم الشيطان إلى أن يطوفوا حول البيت عراة؟ كانوا يقولون أن قريشًا هم

الحمس فقط، أي هم فقط الذين من حقهم أن يطوفوا بالثياب، أي شخص آخر دونهم يطوف عار!

كيف أقنعهم الشيطان بذلك؟

بأن قال لهم: "تطوفون في ثيابٍ عصيتم الله فيها؟"

فقالوا: "يا للهول! حقًا! كيف ذلك!"، فقطّعوا ثيابهم وطافوا عراة!

((وهذا من أكبر مداخل الشيطان وهو استغلال العاطفة التي لا تبنى على علم، ومن أكبر مداخل البدع والشركيات))

حيث قال الشيطان: "لكي تعطوا الله حقه يجب أن تطوفوا عراة بالبيت، ما قدرتم الله حق قدره!".

فبدلًا من أن يجعل التعري شهوة جعله طاعة! نقل المعصية إلى داخل المسجد، مثلما تحدث أحدهم وهو يستمع للأغاني خارج المسجد أنه لا يجوز ذلك فقد خرجت للتو من المسجد، الآن أصبح الأمر أنه يدخل للمسجد ويرن هاتفه بالأغاني وقت الصلاة! فبدلًا من أن ننصح من يستمع للأغاني خارج المسجد، أصبح هناك من يستمعون للأغاني داخله! حيث جعلهم الشيطان يتعرون داخل المسجد، وليس في أي مسجد بل في المسجد الحرام! فاستغلال العاطفة مدخل شيطاني خبيث.

وكما قلت لكم الشيطان يستغل العاطفة غير المبنية على علم، وكم من بدعة وشركيات –لا المعاصي فقط– ظهرت بسبب استغلال العاطفة كالاستغاثة بالقبور، فهي مبنية على بعض العاطفة، وكذلك أغلب العقائد الباطلة مثل: التصوف الضال والتشيع، وغير ذلك، مبنية على استغلال العواطف، وليست مبنية على عقائد صحيحة. الإنسان من الممكن أن يكون بداخله عاطفة يستغلها الشيطان ويُضِل الإنسان بها.

لذلك العلم هنا ضابط مهم جدًا، فلا نقبل أي شيء عاطفي؛ لأن العاطفة ممكن أن تؤدي أيضًا لذلك المعنى كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾[الأعراف ٣٢]، وأن من الممكن أن يصل الإنسان للابتداع كما في قوله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾[الحديد ٢٧] بسبب عاطفة، فالإنسان قد يريد أن يقدم قربانًا إلى الله فيحرم على نفسه أشياء –أحلها له الله–!

الثلاثة اللذين رأوا عبادة النبي -صلى الله عليه وسلم- فكأنهم تقالوها! فقال أحدهم: "أما أنا فأقوم ولا أنام"، وقال الثاني: "وأما أنا فلا أتزوج النساء"، وقال الثالث: "وأما أنا فأصوم ولا أفطر"، تلك عاطفة ليست مبنية على علم؛ فغضب النبي -صلى الله عليه وسلم- لذلك. من الممكن أن تسمع هذا الكلام تقول ما هذه البطولة، لكن هذا بعد فترة يؤدي إلى الضلال، فقد تتطور هذه العاطفة إلى بدعة ثم إلى شرك -نعوذ بالله -عز وجل- من ذلك-.

فيخبرنا ربنا -سبحانه وتعالى- كيف أن الأمور قد تتطور في المجتمع وأنهم يسعون إلى ذلك، ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾[الأعراف ٢٨] -حتى يجعلوا هذا الأمر القبيح المستنكر عند النفس مقبولًا- يقومون بنوع من الضغط المجتمعي حتى يقبله المجتمع فيقولون ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾، ثم يقومون بوضع تشريع لذلك ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، فينسبونه إلى الشرع، لكن الله تعالى يقول: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾.

قلنا في قصة إساف ونائلة أنهم وضعوا إساف على الصفا ونائلة على المروة، وعندما أراد الشيطان أن يأتيهم أتاهم في موطن الطاعة، لاحظ كيف خدعهم الشيطان وجعلهم يضعون إساف ونائلة على الصفا والمروة برغم وسع مكة، لكن حتى يتذكروا ما فعلاه -إساف ونائلة- وضعوا إساف على الصفا ونائلة على المروة. وكذلك عندما أراد الشيطان منهم التعري لم يوسوس لهم بالتعري في مكان كالسوق مثلًا، فلم يقنعهم بالدخول عراة إلى السوق، لا بل عند الكعبة، هذا هو الخلط الذي يقوم به الشيطان بين الشعيرة والفاحشة.

قال بعض العلماء -وإن كانوا قلة-: إن المقصود من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾ هو الشرك وعبادة الأوثان الموجودة عند الكعبة والأصنام الموجودة عند الصفا والمروة، لكن قال جمهور المفسرين: إن المقصود هو الطواف عراة.

يقصد الشيطان إلى نوع -ركز معي هنا- من الخلط بين الشعيرة والضلال، بحيث يظلوا مختلطين مع بعضهم، تخيل معي مشهد إساف الصنم موضوع فوق الصفا ملتصق به ونائلة ملتصقة بالمروة، فيكون **دور العالِم -وهذا مهم جدًا- القدرة على الفصل والتمييز بين الباطل والشعيرة**؛ لأن أحيانًا إما يكون القبول المجمل وإما يكون الرد المجمل، وكلاهما خطأ، فإما أن تقبل إساف على الصفا مثلما هو، أو تقول: "لا، لا يوجد شيئًا اسمه الطواف بين الصفا والمروة!".

فكان بعض المسلمين يتحرجون من الذهاب إلى الطواف بين الصفا والمروة؛ بسبب وجود إساف ونائلة، فتركوا الطواف بالكلية، وهناك أناس قبلوا ذلك بالكلية، وقالوا: "أنترك الطواف بين الصفا والمروة!"، فتركوا التماثيل محلها وطافوا. فنزلت الآية بنوع من الدقة ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ﴾ أي أن الصفا والمروة فقط ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾[البقرة ١٥٨] أما إساف ونائلة فلا.

فيجب أن يكون عند العالم القدرة على التمييز، فيتناول العالم شبهة كالطواف عراة فيوضح أن الطواف مستحب لكن التعري حرام، فنفصل بين الأمرين ولا نلغي الطواف كُليَّةً بسبب طوفهم عراة، ولا نتركهم يطوفون عراة بزعم أن الطواف أمرٌ مستحب، فلن نُغلق الكعبة لأنهم يطوفون عراةً، ولن نقبل بهذا الموضوع ونقول: "ما دام الناس يطوفون ولم يذهبوا للهو مثلًا نتركهم، حتى لو طافوا عراة! فلا مشكلة! دَع عنك سوء ظنك هذا، أنتم هكذا تفكرون دائمًا، نحن لا بد أن نقبل بالطواف هكذا!"

لذلك قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[الأعراف ٢٩]، أنت بالفعل مطالبٌ بالذهاب هناك والمكوث فترة وإقامة وجهك عند المسجد. لكن قال تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[الأعراف ٣١]، إذًا قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ ﴾[الأعراف ٢٩] وبعدها قال: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[الأعراف ٣١].

إذًا فهذا أمر مهم جدًا، لأنَّ أهل الباطل دومًا يقومون بخلط الباطل ومزجه بنوعٍ من الشعائر حتى ينتشر؛ لأنَّ الباطل الصِرف لا ينتشر بين الناس. فهم يريدون من الناس قبول منهجهم الباطل عن طريق الشهوات فلا يأمروهم بال "زنا" لكن يحدثوهم عن "زواج المتعة"؛ لأنه يسمى "زواجًا"، فينشر هذه القضية بعد أن جعلها ملابسةً لنوعٍ معينٍ من أنواع الشرع، وإن كان زواج المتعة حلالًا في فترة ما، لكن إجماع الأمة أنه محرم الآن وأنه نُسخ. يعد نشر هذا الأمر الآن –زواج المتعة– نوعًا من الخلط بين الزواج والشهوة والفجور في الشهوة، أيضًا مثل قضية إساف ونائلة على الصفا والمروة وقضية الطواف عراة، حيث يحدث خلط بين الطاعة والمعصية، وتُقدم لك ممزوجة؛ فتتردد في ردِّها بالكُليَّة –فهي طاعة– أو تستقبلها بالكُليَّة –فستقبل معصيةً–.

فلا بد من القدرة على الفصل، حتى لو لم تستطع ذلك في الواقع فعلى الأقل يكون هناك فصل في الأذهان، بمعنى أنك لو لم تستطع الآن منع طواف العراة في الكعبة -بفرض أن هذا موجود الآن- فاشرح الأمر للناس وبيِّن لهم الخلط واجعل الأمر مفصولًا في عقولهم، حتى لو لم تستطع فصلها في الواقع. هل اتضحت هذه القضية؟

استدلوا على انتشار الفاحشة باستدلالين: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، فجاء الرد على الجملة الثانية، وليس على الأولى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[الأعراف ٢٨]، وهذا أمر مستقر في العقول وفي الفطرة -أن الدين لا يأمر بالفحشاء-.

قال بعض العلماء في قضية ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾: "إن الله لم يردَّ عليهم في هذه النقطة؛ لأن قضية تقليد الآباء استدلالٌ فاسد"، وأطال بعض المفسرين في قضية التقليد، وأن الإنسان لا يصح له أن يكون مُقلِدًا، وحقيقة هذا الكلام غير منضبط بشكل كامل؛ لأن **التقليد لغيرك ليس مرفوضًا بالكليَّة**.

لكن خطؤهم هنا في التقليد قال العلماء فيه نقطتين: الخطأ ليس في مجرد التقليد، بل على العكس، التقليد في حق من ليس عنده علم أمر واجب؛ فهو لا يعرف، كما في قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٦]. كان خطؤهم في قضيتين:

- القضية الأولى أنهم قلدوا مَن ليس أهلًا للتقليد، فقالوا: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾[الأعراف ٢٨]، فلم يقولوا مثلًا وجدنا عليها إبراهيم الخليل -عليه السلام- يفعل ذلك.
- القضية الثانية: أنهم قلدوا في أمر بديهي الفساد وواضح الفساد، من المفترض أن الأمر فيه فحشاء واضحة؛ فلا تقل إنك مُقلد. فمثلًا: الوقوف بجوار الظالم ومناصرته أمرٌ واضح وبيّن الفساد، لا تقل حينها إنك مقلد، وليس لك شأن، فهم من أمروك بذلك، وأنت فقط تستجيب لهم.

فهنا المعاتبة على قضيتين: تقليد من ليس أهلًا للتقليد، وأن الأمر بديهي الفساد. إنما أن يقلد الإنسان في مسألة لا يفقه فيها فهذا أمر يحتم عليه إن لم يكن عنده علم أو وسائل لتحصيل هذا العلم، حيث قال ربنا -سبحانه وتعالى-: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

[٦] ذكرت هذه الآية في [النحل ٤٣] و[الأنبياء ٧]

فلمَّا كان استدلالهم فاسدًا لم يرد الله –عز وجل– عليهم، حيث قالوا استدلالين: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، فكان الرد على القضية الثانية فقط ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[الأعراف ٢٨]، ففي الآية تبيين ما قاله الله وما لم يقله الله.

عندما يتصدر أحد ما ويقول هذا –الأمر الفاحش– من الدين من الواجب أن يتصدر أناسٌ ويقولون أن هذا ليس من الدين، فإذا ادعى أناسٌ أن شيئًا من الشرع ونسبوه إليه وكان هذا الشيء غريبًا على الشرع وليس منه في شيء، يجب على أهل العلم أن يقوموا ويبينوا الحق ويقولوا: "إن هذا ليس من الدين في شيء، هذا أمر باطل".

يقول تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. وبعد أن تُبَيّن الباطل يجب أن تُبَيّن الحق، ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[الأعراف ٢٩]، قالوا أن القسط هنا بمعنى العدل أو التوسط في الأمور، أي ما بين الإسراف والبخل أو الإفراط والتفريط. فأمر ربي –سبحانه وتعالى– بالعدل، أي التعامل بالعدل مع أي شيء يأتينا من الآباء أو من الأمم السابقة، فنزِن هذه الأشياء بميزان العدل، وما يوافق للشرع نقبله، فلا نرد كل شيء؛ وليس كل شيء محل قبول.

يقول تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾، أي أن المطلوب منكم عند المسجد ليس التعري، فإذا أردتم المبالغة في العبادة فعليكم بالإخلاص لا بالتعري، أتاهم الشيطان ليجتهدوا في العبادة والطاعة، يريد أن يُغويهم فيقول لهم: "أتطوفون بالبيت بثياب عصيتم الله فيها؟ انزعوها"؛ فنزعوا لباسهم، وطافوا عراةً بالبيت. يخبرهم ربنا –سبحانه وتعالى– إذا كنتم تريدون أن تجتهدوا في الطاعة أقيموا وجوهكم ولا تتعروا، إقامة الوجه هي نوع من الملازمة أي عدم التلفت، فقالوا هي علامة على الإخلاص.

يقول تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾، أي أن تُخلص لله الطاعة في كل مسجد وليس في الكعبة فقط، فهذا هو المطلوب منك؛ ولهذا أقيمت المساجد –لا للتعري–، فحدث **توضيح الباطل من الحق، ثم تبيين الحق والدعوة إليه**. عندما تنتشر معصية مختلطة بطاعة أو شهوة مختلطة بشعيرة أو باطل مختلط بنوع من الدين، يكون منهج أهل العلم للتعامل مع ذلك الباطل هو الفصل والتمييز ثم تبيين الباطل، هذا ليس من الدين، أما الدين فهو كذا، هذا هو المنهج.

يقول تعالى: ﴿وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾، اختلف العلماء في ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ على قولين:

- القول الأشهر: هو أنه –عز وجل– قادر على البعث، كما بدأكم من لا شيء وعلى خلقكم؛ فبالتالي هو قادر على إعادتكم وذلك أهون عليه –سبحانه وتعالى–.
- وقال بعضهم: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ متعلقة بما بعدها، أي أنه أول ما خلقكم بعلمه وتقديره – سبحانه وتعالى– علم أن هؤلاء سيكونون مؤمنين وهؤلاء سيكونون كفارًا، –كما في قوله تعالى: – ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾[الأعراف ٣٠]، فكما بدأكم الله –عز وجل– في أول الخلق وقال هؤلاء مؤمنون وهؤلاء كفار؛ كانت النهاية بالفعل أنَّ هؤلاء مؤمنون وهؤلاء كفار؛ لأن الله –عز وجل– هو الذي قدر ذلك.

والمعنى الثاني مال إليه ابن كثير، والمعنى الأول –الذي عليه الجمهور– مال إليه الطبري. يقول تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[الأعراف ٢٩]، أي أنه قادر على بعثكم مرة أخرى، ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾[الأعراف ٣٠] فالناس ينقسمون دائمًا مع كل فتنة إلى قسمين –مفتونين أو سالمين–.

يقول تعالى: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، من أهم أسباب الضلالة أنهم لم ينفذوا الوصية –قال ربنا في وصيته لآدم: ﴿ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الأعراف ٢٤]–.

((إذًا من أهم أسباب الضلال اتخاذ الشياطين أولياءَ))

لم ينفذوا الوصيةَ لحظةِ النزولِ، فقد أمرنا الله –عز وجل– أن نتخذ الشياطين أعداء. هناك من يتخذ الشياطين أولياء فيَضِل، يقول تعالى: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، لم يتخذوهم أولياء فقط، بل ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾[الأعراف ٣٠]. على سبيل المثال حينما يذهب إلى إساف ونائلة أو يطوف بالبيت عار أو يفعل هذا الباطل يظن أنه مهتدٍ، فبالتالي يرفض النصيحة، وهذه إشكالية البدعة دائمًا وأبدًا، أنه كلما اجتهد فيما يظن أنه طاعة كلما ابتعد عن الله –معاذ الله–.

النداء الثالث–لبني آدم–: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾[الأعراف ٣١]، أحيانًا لا يستطيع الشخص الجمع بين العاطفة –غير المبنية على علم–والدين، فكيف بإمكانه التعبد والتزين معًا؟ يوجد تصور مثالي وهمي عند البعض، وهذا موجود بكثرة لدى النصارى كقضية عدم الطلاق، هناك تصورات مثالية لا تناسب البشر كما في قوله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾، قال تعالى بعدها: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾[الحديد ٢٧]، ؛ لأنها لا تناسب البشر، فهي فوق طاقتهم.

فهناك تصور مثالي أن العبادة لا بد معها من الجوع والفقر والزهد التام ولا وجود لأية زينة وقد يكون معنى أية نوع من التزيُّن الفتنة، بالطبع هذا تصور خاطئ، **فالقضية تكمن في القسط والتوازن**. قد

يؤدى هذا التصور الخاطئ إلى عدم القدرة على استكمال الشرع؛ لذلك عندما ذهب عثمان بن مظعون وغيره إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وأراد أن يختصي ويتبتل، نهاه النبي -صلى الله عليه وسلم- عن ذلك، كان يعتقد أن هذا -أن يقطع الشهوة تمامًا- نوع من التفوق في الدين والكمال، بالطبع لا. القضية ليست في وجود الشهوة، لكن في وضعها فيما أمر الله -عز وجل- به، -كما روي عن النبي - صلى الله عليه وسلم -أنه قال: - (أرأيت إن وضعها في الحرام أيكون عليه وزر؟ كذلك إن وضعها في الحلال فله بها أجر)[٧]. هناك أناس ليس عندهم تصور لكيفية الأكل والشرب وأخذ الثواب أو كيف يتزوج وينال الثواب، وكيف أن التزين من الطاعة! فلا يقدر على الجمع بين ذلك كل.

هناك تصورات مثالية مبنية على عاطفة تؤدي إلى نوع من البدع والضلال، **هذا الدين جاء مناسبًا للإنسان ولحاجياته، لم يأت الشرع بتغيير الفطر أو نسف المشاعر، ولكنه جاء بتوجيه المشاعر وضبط الإنسان**، فلم يأمرك الشرع بنزع الشهوة والخوف من حياتك، بل أمرك بوضع الشهوة في مكانها. حينما يسمع المرء حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- (من استطاع منكم الباءة فليتزوج) يجدُ مراعاةً لحال الإنسان، (ومَن لم يستطع فعليه بالصوم)[٨].

لدى الناس مفهوم أنَّ النجاح يعني تحقيق المرء لشيء ما أو الحصول على مكسب ما، وعلى هذا فالصومُ -من الأساس- نوعٌ من الإنهاك لقوة الإنسان والامتناع لأجل رضوان الله -سبحانه وتعالى-، قد لا يُفهَم ذلك -الصوم وغرضه- بالمفاهيم الدنيوية، إلا إذا أعتبره أحدهم نوعًا من أنواع الحمية الغذائية [الدايت]، لكن النبي -صلى الله عليه وسلم-قال إن هذا -الصوم- لتُطفئ هذه الشهوة: (عليكم بالصوم)، فمن الممكن ألَّا يُفهَم مثل هذا الكلام بالمعايير الدنيوية. فإذا ابتعد إنسان عن مقاصد الشريعة لن يفهم معنى الصوم، قائلًا في قرارة نفسه: "ولماذا أُنهك نفسي؟"

تنهك نفسك لأنك تريد أن تصل إلى تطبيق شرع الله -عز وجل-، فمن مراد الله أن تبتعد عن الشهوات المحرمة، وأنت لا تستطيع الزواج الآن فتصرف هذه القوة -التي في الجسد- في الطاعة، وتكفها -هذه القوة- عن طريق الامتناع عن الطعام والشراب والشهوة بالصيام.

---

[٧][عن أبي ذر الغفاري:] قيلَ للنَّبيِّ ﷺ: ذهَبَ أهلُ الأموالِ بالأجْرِ، فقال النَّبيُّ ﷺ: إنَّ فيكَ صَدَقةً كَثيرةً، فذكَرَ فَضلَ سَمعِكَ، وفَضلَ بَصرِكَ، قال: وفي مُباضَعَتِكَ أهلَكَ صَدَقةٌ، فقال أبو ذَرٍّ: أيُؤجَرُ أحَدُنا في شَهوتِه؟ قال: أرَأيْتَ لو وضَعْتَه في غيرِ حِلِّه أكان عليكَ وِزرٌ؟ قال: نَعَمْ، قال: أفتَحتَسِبونَ بالشَّرِّ، ولا تَحتَسِبونَ بالخَيرِ.
شعيب الأرنؤوط (ت ١٤٣٨)، تخريج المسند ٢١٤٦٩ • صحيح • أخرجه الترمذي (١٩٥٦) بنحوه، وأحمد (٢١٤٦٩) واللفظ له •

[٨][عن عبدالله بن مسعود:] دَخَلْتُ مع عَلْقَمَةَ، والأسْوَدِ على عبدِ اللَّهِ، فَقالَ عبدُ اللَّهِ: كُنَّا مع النبيِّ ﷺ شَبابًا لا نَجِدُ شيئًا، فَقالَ لَنا رَسولُ اللَّهِ ﷺ: يا مَعْشَرَ الشَّبابِ، مَنِ اسْتَطاعَ الباءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فإنَّه أغَضُّ لِلْبَصَرِ وأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، ومَن لَمْ يَسْتَطِعْ فَعليه بالصَّوْمِ فإنَّه له وِجاءٌ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٥٠٦٦ • [صحيح] • أخرجه البخاري (٥٠٦٦)، ومسلم (١٤٠٠) •

جاء الشرع متناسبًا مع حاجيات الإنسان ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾[الأعراف ٣١] القضية ليست قضية التعري، على العكس، هناك من استحب أن تضع المرأة الحُليَّ -وإن كان هذا من شواذ الأقوال-، فتضع الحُليَّ وهي تصلي. أنا أخبركم كيف فكَّر بعض الفقهاء فقط.

يقول تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ﴾؛ فقد أعتقد البعض أنه طالما ذهبت للحج لا يصح أن تشرب لبنًا أو تأكل لحمًا أو أي مصدر لحوم من الأنعام كالخراف مثلًا، فتمتنع عنها تمامًا! مَن الذي قال ذلك؟ هل أقر بذلك الشرع؟ أو هي العاطفة التي لم تُبن على شرع؟ فقد تجعل العاطفةُ -التي لم تُبن على علم- الإنسانَ يبتدع في دين الله -عز وجل-.

آخر آية نتوقف عندها هي قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِ﴾[الأعراف ٣٢]، من رحمة الله -عز وجل- أن هذه الزينة مُشَارَكة بين المؤمن والمشرك في الدنيا، لكنها خالصة للمؤمن في الآخرة. هذه الزينة -الدنيا- مشاركة في الدنيا، ﴿قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي تكون خالصة يوم القيامة للمؤمنين.

وإن كان بعض العلماء تكلم في مسألة اللام في قوله تعالى: ﴿قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أهي لام ملكية؟ كان لشيخ الإسلام -ابن تيمية- مبحث طويل في هذه المسألة، وهل الكافر لا يملك المال؟ وبالتالي ليس من حقه أن يُمَلَّك لو انتصر أهل الإسلام على الكفار؟ وهذا مبحث طويل ذكره في باب السياسة الشرعية.

يظن بعض الناس أنه لا يمكن للمؤمن أن يحوز الدنيا في يديه أو أن الكافر لا يمكنه حيازة الدنيا، وهؤلاء أشخاص أحاديون في تفكيرهم، فهم يمتلكون تصورًا أنه إما أنه لا بد يكون الكافرون أتعس أهل الأرض وأفقرهم ولا يملكون شيئًا البتة من الدنيا ولا أي ملذات، وإذا حدث هذا يبدؤون في الشك في الدين ويقولون: "كيف لهؤلاء الكفار أن يكون معهم مال!"، أو لديهم تصور عكس ذلك، وهو أنَّ المؤمن لا بد أن يكون مبتلىً وفقير لا مال له ولا يأكل... وهذا تفكير أحادي، فإذا وجد مؤمنًا لديه بعض من الدنيا أو كافر عنده نوع من الدنيا يبدأ شكه في الدين، لا؛ إنها مشاركة وأن هناك سنن لتوزيع الأرزاق في الدنيا مختلفة عن قضية الهداية، كما أن معاملة الله -عز وجل- في الدنيا أمر مختلف.

كنت أشرت إلى جزء من هذا المعنى في خطبة جمعة في تفسير سورة الشورى أو (وقفات مع سورة الشورى)، فهناك فارق بين أرزاق الدنيا وأرزاق الهداية، فرزق الهداية مختلف عن الأرزاق الدنيوية. يقول تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

أسال الله –عز وجل– أن يرزقنا العمل بكتابه وأن يرزقنا فهمه وتلاوته آناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذي يرضى به عنا. أسال الله –عز وجل– أن يجعلني وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهله وخاصته. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، سبحانك اللهُمَّ وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.